استکمال توحید نجد

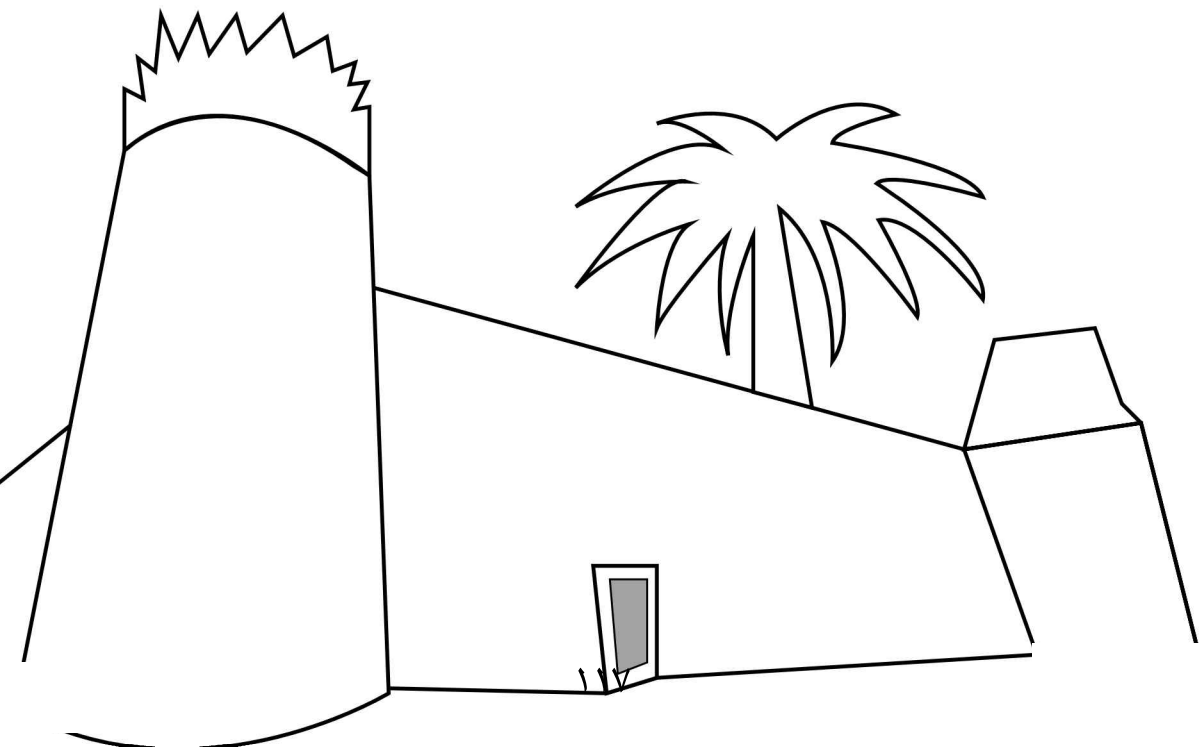

لقد كان لنجاح الملك عبدالعزيز في توحيد منطقة الأحساء والقطيف مع ما وحَّده من أقاليم نجد أثر واضح في تعزيز موقفه؛ وذلك لما تَتميَّز به تلك المنطقة من إمكانات اقتصادية. ثم جاء تَمكُّنه من حَلِّ مشكلة العُجْمان ليزيد في تعزيز ذلك الموقف. على أنه لم يَحلَّ عام ١٣٣٧هـ إلا وقد تبلورت فائدة حركة الإخوان، الذين أصبحوا قوة ضاربة في صفوف جيشه، كما برهنت على ذلك معركة تُرَبة المشهورة، هذا العام، وما تلاها من معارك[١]. وكان من حسن حظه أن تلك الأمور المفيدة له قد زامنها حدوث خلاف بين آل سَبْهان، الذين كانت لهم سلطة واضحة في تسيير إمارة جبل شَمَّر. بل إن فئات من قبيلة شَمَّر ذاتها انضمت إلى حركة الإخوان، فأصبح ولاؤها للملك عبدالعزيز بدلًا من زعماء ذلك الجبل. ثم انتهت الحرب العالمية الأولى بهزيمة الدولة العثمانية، التي كانت سندًا قويًّا لأولئك الزعماء، واجتمعت تلك العوامل لتزيد من ضعفهم يومًا بعد آخر.

على أن الكارثة الكبيرة لآل رشيد حدثت في شهر رجب من عام ١٣٣٨هـ عندما أقدم عبدالله بن طلال على قتل الأمير سعود بن عبدالعزيز غدرًا خارج بلدة حائل[٢]. وقد قتل مماليك سعود ذلك القاتل فورًا، وعادوا إلى البلدة ومعهم عبدالله بن متعب بن عبدالعزيز، الذي بويع أميرًا للجبل. لكن موقفه كان ضعيفًا جدًّا. ولَعلَّ ذلك الضعف كان أحد الأسباب التي دعت إلى إرسال وفد

---

(١) سيأتي الحديث عن تلك المعركة إن شاء الله.

(٢) عبدالله بن طلال هو ابن لنايف بن طلال بن عبدالله بن علي بن رشيد. وكان سعود بن عبدالعزيز قد خرج من حائل للنزهة ومعه ابن أخيه عبدالله بن متعب وعدد من مماليكه وخدمه، ولحق به عبدالله بن طلال، ثم أخذا يتنافسان في إصابة هدف وضعاه في الصحراء. وبينما هما كذلك غدر عبدالله بسعود، فصوَّب نار بندقيته إليه، وأرداه قتيلًا. ثم جرت معركة بينه وبين مماليك سعود حتى قتلوه. وبعد عودتهم إلى حائل بعبدالله بن متعب كادت تقع فتن بينه وبين محمد بن طلال، لكن الموقف انتهى بذهاب محمد إلى الجوف مؤقتًا. انظر عن ذلك القاضي، ص٥٦ والذكير، نسخة خاصة، ص١٢٨.

إلى الملك عبدالعزيز أملًا في تجديد ما كان بين الملك وإمارة الجبل من صلح. لكن الملك اشترط أن تكون لآل رشيد إدارة الشؤون الداخلية للإقليم، وأن تكون الشؤون الخارجية في يده، فلم يَتَّفق الطرفان[1].

ولم يكن غريبًا أن يَتَّخذ الملك عبدالعزيز ما اتخَّذه من موقف حازم تجاه إمارة جبل شَمَّر. ذلك أن موقفه العسكري قد أصبح قويًّا جِدًّا؛ برهن عليه ما حدث في تُرَبة سنة ١٣٣٧هـ، ثم ما كان من نجاح في منطقة عسير سنة ١٣٣٨هـ. وبالإضافة إلى هذا فإنه رأى ضرورة إنهاء إمارة آل رشيد، لئلا يحدث تحالف بينهم وبين الأشراف، الذين يحيطون به في كُلٍّ من الحجاز والأردن والعراق. وهكذا توافرت الأسباب ليبدأ عملياته العسكرية ضد تلك الإمارة، فَيوحِّد ما تحت يدها مع ما وَحَّده سابقًا.

وقد بدأت تلك العمليات في شوَّال عام ١٣٣٨هـ عندما أرسل الملك عبدالعزيز ابنه سعودًا بقوة كبيرة من الإخوان صوب جبل شَمَّر، فنجحت تلك القوة في إغارتها على فئة من قبيلة شَمَّر في الشُعَيبة[2]. ثم عادت من هناك[3]. وانشغل الملك عبدالعزيز خلال الشهور الأولى من السنة التالية بأمر الكويت. فلما فرغ من ذلك أذن للإخوان بمهاجمة بلدان جبل شَمَّر وباديته. وذهبت فرقة قليلة العدد منهم إلى هناك، فنجحت في اشتباكاتها مع فئات من شَمَّر وابن رشيد رغم كثرة خصومها[4]. ثم تَوجَّه الملك عبدالعزيز نحو القصيم، وأمر أتباعه؛ خاصة الإخوان، بالتَّجهُّز لغزو جبل شَمَّر. فلما اجتمعوا قسمهم إلى قسمين، وجعل قيادة

---

(١) القاضي، ص٥٨؛ الذكير، نسخة خاصة، ص ص ١٢٨ - ١٢٩.

(٢) تقع شرق حائل بمَيْلٍ نحو الشمال.

(٣) القاضي، ص ص ٥٦ - ٥٧؛ الذكير، نسخة خاصة، ص١٢٩.

(٤) القاضي، ص٥٨.

أحدهما لابنه سعود، والآخر لأخيه محمد[1]. فاتَّجه سعود بمن معه وهاجم فئات من بادية شَمَّر، وغنم منها أموالًا كثيرة. وتَوجَّه محمد حتى وصل إلى أطراف حائل، وبدأ يحاصرها. فاستأذنه كبارها أن يسمح بذهاب وفد منهم لمفاوضة الملك عبدالعزيز، فأذن لهم. وعرض الوفد على الملك أن تكون الشؤون الخارجية في يده، لكنه رفض ذلك، وطالب بأن يدخل الإقليم فيما دخلت فيه بقية أقاليم البلاد المُوحَّدة تحت رايته. ولم يرض آل رشيد وأنصارهم بذلك[2]. فاستمر الحصار لحائل. على أن الملك استدعى أخاه محمدًا، وجعل القيادة كُلَّها لابنه سعود. ولما اشتد الحصار على البلدة قدم إليها محمد بن طلال بن رشيد بترتيبٍ مع بعض زعمائها[3]. وخاف منه الأمير عبدالله بن متعب. فكان ذلك من بين عوامل خروجه إلى معسكر الأمير سعود بن عبدالعزيز، ولجوئه إليه. وقد ركب به سعود إلى أبيه، الذي لم يرض عن مغادرة ابنه مركزه في الحصار[4]. واستغل محمد بن طلال فرصة خروج ابن متعب من حائل، فاستولى على مقاليد الأمور فيها. ثم انتهز فرصة ابتعاد سعود بن عبدالعزيز عن البلدة، فخرج منها، وشَنَّ حملات على السرايا السعودية التي كانت حولها[5].

وحينئذ أمر الملك عبدالعزيز فيصلًا الدويش، أحد قادة الإخوان، أن يتوجه بأتباعه إلى جبل شَمَّر، ويبدأ بمحاصرة بلدانه. فلما اقترب الدويش من

---

(١) أكثر المصادر التي اطلعت عليها تذكر ذلك؛ مثل القاضي، ص٥٨؛ الذكير، نسخة خاصة، ص١٤١؛ الريحاني، ص٢٧٨. لكن ابن هذلول ينفرد بالقول (ص١٣٠) إن قسمًا ثالثًا كان بقيادة فيصل بن عبدالعزيز. ويبدو أن فيصلًا كان تحت راية أخيه سعود في تلك الغزوة، كما نص على ذلك فؤاد حمزة، **البلاد العربية السعودية**، ص٦٠.

(٢) الريحاني، ص ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٣) القاضي، ص٥٨.

(٤) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

(٥) الذكير، نسخة خاصة، ص١٤١؛ ابن هذلول، ص١٣١.

ذلك الجبل علم أن ابن طلال قد خرج من حائل لمجابهته، واعتقد أنه مُتَّجه إلى الجُثامية، فسبقه إليها. أما ابن طلال فاتخذ من النِّيْصيَّة القريبة منها مركزًا له. وتبادل الطرفان الإغارات الخفيفة[1]. ثم وصل إلى هناك الملك عبدالعزيز بقوة كبيرة من الحاضرة والإخوان المنتمين إلى قبائل مختلفة، ومعه عدد من المدافع. وخطط تخطيطًا جيدًا للهجوم على ابن طلال وأنصاره بأن أرسل فئات من الإخوان ليلًا للإطاحة بهم وقطع خط انسحابهم إلى حائل. ثم بدأ الهجوم عليهم مع انبلاج الفجر من جميع الجهات مستخدمًا المدافع في المعركة. فقُتِل كثير من المهاجَمين، ولجأ الباقون إلى جبل أجأ، حيث واصلوا انسحابهم إلى حائل[2].

وواصل الملك عبدالعزيز زحفه بأتباعه صوب حائل، فَشدَّد الحصار عليها، واستبسل أهلها في الدفاع عنها. لكن إحكام الحصار حولها، ونفاد كثير من المؤن لدى سكانها، أضعفا موقفهم جدًّا. وحاول ابن طلال أن يقنع بريطانيا بالتوسط بينه وبين الملك عبدالعزيز، فلم تنجح محاولته[3]. واقتنع كثير من سكان البلدة أن استمرار مقاومتهم لا فائدة منه. فرأى بعض كبارهم، بقيادة إبراهيم بن سَبْهان، أن يَتَّصلوا بالملك، ويَتَّفقوا معه على تسهيل دخوله إلى بلادهم مقابل الأمان لأهلها. وتَمَّ ذلك الدخول دون إراقة دماء. ولما علم ابن طلال بالأمر اعتصم بقصر الإمارة. ثمَّ طلب الأمان لنفسه من الملك، فمنحه إيَّاه. وذلك في التاسع والعشرين من صفر عام ١٣٤٠هـ[4] ٣١/١٠/١٩٢١م. وبهذا تَوحَّد إقليم جبل شَمَّر مع ما سبق توحيده من أقاليم البلاد ومناطقها.

---

(١) يقال: إن ابن طلال كتب إلى الدويش يدعوه إلى تحكيم كتاب الله بينهما؛ محاولة منه لطمأنته حتى يفاجئه بهجوم خاطف، وأن محاولته نجحت. انظر الريحاني، ص٢٨٠.

(٢) القاضي، ص ص ٥٨ - ٥٩؛ الريحاني، ص٢٨١.

(٣) المصدر الأخير نفسه، ص٢٨٣.

(٤) القاضي، ص٥٩؛ الريحاني، ص٢٨٣.

ولقد عامل الملك عبدالعزيز أهالي حائل بالحُسنى، فَوزَّع عليهم ما لديه من أطعمة، كانوا في أمس الحاجة إليها حينذاك، نتيجة الحصار السابق لها[1]. ثم عاد من هناك إلى الرياض ومعه ابن طلال وبقية أفراد آل رشيد، حيث بقوا مُعزِّزين مكرمين[2]. وعَيَّن في إمارة الجبل إبراهيم بن سَبْهان، ثم أَحلَّ مَحلَّه عبدالعزيز بن مساعد بن جلوي[3].

*****

(١) القاضي، ص٥٩؛ الريحاني، ص٢٨٤.

(٢) الزركلي، ج١، ص٢٥٦.

(٣) القاضي، ص ص ٥٩ - ٦٠. وكان تعيين ابن مساعد في رمضان سنة ١٣٤٢هـ.